قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب[1] .

ومعنى ﴿أَلَا .. ﴿٢٢﴾﴾ [النور] أداة للحضِّ وللحثِّ على هذا الخُلُق الطيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور] فمن تخلَّق بأخلاق الله تعالى فليكُنْ له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومَنْ منّا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[2] الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

نلحظ أن الآيات تحدثتْ عن حَدِّ القذف وما كان من حادثة الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبي بكر في مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلتْ مسألة الرزق في هذا الموضوع ؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق بالرزق ، والرزق تكفَّل الله به لعباده ؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطي المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/٢٧٦) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : بلى والله إنّا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : لا أنزعها منه أبداً ، في مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

(٢) المحصنة : التي أحصنها زوجها . والمحصنات : العفائف من النساء . [لسان العرب - مادة : حصن] .

ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملْكاً لـه ، فإنْ حثَّه على النفقة بعـد ذلك يأخذها منه قَـرْضـاً ؛ لذلك يقول سـبحـانه : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فإنْ أنفق المـوسر على المعـسر جعله الله قَرْضـاً ، وتولّى سداده بنفسه ؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع في هبَته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذه منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد]

وفي موضع آخر يقول عن الأموال : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد] لأن الإنسان تعب في جمع المال وعَرِق في سـبيله ، وأصبح عـزيزاً عليه ؛ لذلك يبخل به ، فـأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الـرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول مَنَاط لعـمارة الـخليفـة في الأرض ؛ لذلك ترك الـحديث عن القـضيـة الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التي تتعلَّق بالرزق .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعـالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ .. (٢٣٨)﴾ [البقرة] وقـد ذُكِرَتْ وسط مـسائـل تتعلق بالعـدَّة والكفـارة ، وعدَّة المـتوفَّى عنهـا زوجهـا ، فمـا علاقـة الصلاة بهـذه المسائل ؟

قالوا : لأن النزاعـات التي تحدث غـالباً ما تُغيِّر النفس البـشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

---

(١) أحفاه : ألح عليه في السؤال أو طالبه بقوة وإلحاح . قال تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا .. (٣٧)﴾ [محمد] أي : إن يجهدكم بطلبها ويلح عليكم تبخلوا . [القاموس القويم ١٦٣/١] .

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [النور] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهى المتزوجة لأن الإحصان : الحفْظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج ، أو هى العفيفة ، وإنْ لم تتزوج فهى مُحْصَنَة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة ؛ لأن عملية البِغَاء والزنا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿الْغَافِلاتِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [النور] : جمع غافلة ، وهى التى لا تدرى بمثل هذه المسائل ، وليس فى بالها شىء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريرة خادمة السيدة عائشة : « ما تقولين فى عائشة يا بريرة ؟ » فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتى الدواجن فتأكله وهى لا تدرى[1] . وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْج المراهقة ومع نُضْج المراهقة نُضْج اليقين والإيمان .

وتلحظ هذه الغفلة فى البنت الصغيرة حين تقول لها : أتتزوجين فلاناً ؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدرى معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإنْ ذكرتَ لها الزواج تستحى وتخزى أن تتحدث فيه ؛ لأنها عرفتْ ما معنى الزواج .

لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكتتْ فهذا إذْن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إنْ

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٦٩ - ٢٧٢ - بشرح فتح البارى) عن عائشة رضى الله عنها وفيه « أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقال بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله » .

قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و .. و .. ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرى شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا - تبارك وتعالى - جزاء هذه الجريمة : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرى شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فيكيف نقول : إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعْن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أنْ يُقام عليه الحدُّ ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزى فى الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حَيٍّ ، وقد يُوصَف العذاب مرة بأليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم[1] ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

---

(١) - ورد وصف العذاب بالأليم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] ، ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان] .
- وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً ، منها : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة] ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب] .
- وورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً ، منها : ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة] ، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء] .
وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها :
- عذاب شديد : ٢١ مرة .
- عذاب الخلد : مرتان.
- عذاب غليظ : ٤ مرات.
- عذاب غير مردود : مرة واحدة.
- عذاب مقيم : ٥ مرات
- عذاب الخزى : مرتان
- عذاب قريب : مرة واحدة
- عذاب السعير : ٤ مرات وغيرها .

والمعذّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجلْد ، لكن يهينه ، فهو فى حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوّره المتصوِّر ؛ لأن العذاب إيلام من مُعذِّب لمعذَّب ، والمعذَّب فى الدنيا يُعذَّب بأيدى البشر وعلى قَدْر طاقته ، أمَّا العذاب فى الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله ؛ لذلك يوُصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذى يتكلم ، فماذا أضافت الآية : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

قالوا : فى الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم فى الحقيقة أنت ؛ لأنه مَا تحرَّك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة ، أمَّا فى الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : ألاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال فى سعَة الدنيا . فما الذى حدث ؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر فى الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] أى : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولِمَ نستبعد نُطْق اللسانِ على هذه الصورة ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صِدْق هذه القضية . فَقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم الآن من مكان ؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر في شيء ، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدرى حتى كيفية هذا القيام ، وأيّ عضلات تحركت لأدائه .

ولك أنْ تقارن هذه الحركة التلقائية السلسة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة ، وكيف أن السائق أمامه عدد كبير من العِصيّ والأذرع ، لكل حركة في الآلة ذراع معينة .

فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم في نفسك وفي أعضائك ، فكيف تستبعد أن يكون لربك ـ عز وجل ـ هذه السيطرة على خَلْقه في الآخرة ؟

إذن : فاللسان محلّ القول ، وهو طَوْع إرادتك في الدنيا ، أمّا في الآخرة فقد شُلّتْ هذه الإرادة ودخلتْ في قوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] وهذه جوارح لم يكُنْ لها نُطْق في الدنيا ، لكنها ستنطق اليوم . ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون : إن الجارحة حين تعمل أيّ عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملتْ ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التي التقطت .

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنطق حقيقة ، كما قال تعالى حكاية عن الجوارح : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ

﴿ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومعنى : ﴿ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أن لكل شيء في الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] ونطق الهدهد ، فقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

وقد قال تعالى عن نُطْق هذه الأشياء : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن ، إنْ أراد الله لك أن تفقه نُطْقهم فقَّهك كما فقَّه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل] كما فَهِم عن الهدهد ، وخاطبه في قضية العقيدة .

وإنْ كان النطق عادةً يفهم عن طريق الصوت ، فلكل خَلْق نُطْقه الذي يفهمه جنسه ؛ لذلك نسمع الآن مع تقدُّم العلوم عن لُغة للأسماك ، ولغة للنحل ... إلخ .

وسبق أنْ قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبي ﷺ أن الحصى سبَّح في يده ، نقول : عليكم أن تُعدِّلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى مُسبِّح في يده ﷺ ، كما هو مُسبِّح في يد أبي جهل .

ولو سألتَ هذه الجوارح : لم شهدتِ عليَّ وأنت التي فعلت ؟ لقالت لك : فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم تنحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] أى : يوم أنْ تحدث هذه الشهادة ، وهو يوم القيامة ﴿ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] الدين : يُطلَق على منهج الله لهداية الخَلْق ، ويُطلق على يوم القيامة ، ويُطلَق على الجزاء .

فالمعنى : يوفيهم الجزاء الذى يستحقونه ﴿ الْحَقَّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] أى : العدل الذى لا ظلمَ فيه ولا تغيير ، فليس الجزاء جُزَافاً ، إنما جزاء بالحق ؛ لأنه لم يحدث منهم توبة ، ولا تجديد إيمان ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب ، وليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الحكم أو يؤخره عنهم .

لذلك بعد أنْ قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[1] وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ[2] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

قال بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]

---

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، قرشى ، عمّ رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمين ، كان غنياً عتياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فآذى أنصاره ، وحرض عليهم وقاتلهم ، كان أحمر الوجه مشرقاً ، فلقب فى الجاهلية بأبى لهب ، مات بعد وقعة بدر بأيام عام ٢ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/١٢] .

(٢) هى : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوناً لزوجها أبى لهب على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم ، فتحمل الحطب فتلقى على زوجها ليزداد على ما هو فيه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٤/٥٦٤] .

يعنى : ليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الكلام ، فما قُلْته سيحدث لا محالةَ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾ [النور] و ﴿ الْحَقُّ .. (٢٥) ﴾ [النور] هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكلُّ ما عدا الله تعالى مُتغير ، إذن : فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تغييرَ فيه ، لذلك يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أنْ نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فالله هو الحقُّ الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية ، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر مَنْ يقول أنا الله ويدَّعى هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إنْ لم يَقُمْ عليها معارض ومعنى ﴿ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾ [النور] الواضح الظاهر الذى تشمل أحقيتُه الوجودَ كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾

قلنا فى تفسير ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. (٣) ﴾ [النور] أن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦) ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ أُولَـٰئِكَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] أي : الذين دارتْ عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس في حقهم ، وهما عائشة وصفوان ﴿ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] أي : مما يُقَال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذي ذكرتُه الآية ، فمن أطيبُ من رسول الله ﷺ ؟ وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على رسوله ﷺ ويجعل من زوجاته مَنْ تحوم حولها الشبهات .

إذن : فلا بُدَّ أن تكون عائشة طَيِّبةٌ طيبةٌ تكافي وتناسب طِيبة رسول الله ؛ لذلك برَّأها الله مما يقول المفترون .

وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] مغفرة نزلتْ من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوي للكرامة وللمَنْزلة وللسمو ، لا الرزق الحسيّ الذي يقيم قوام البدن من أكل وشرب وخلافه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟(١) وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

كلمة بيت : نفهم منها أنه ما أُعدّ للبيتوتة ، حيث يأوي إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم ، ويُسمَّى أيضاً الدار ؛ لأنها تدور على مكان خاص بك ؛ لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ،

(١) أي : حتى تطلبوا الأُنْس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأُنْس وتعلموه . [القاموس القويم ١/٣٧] .

يقولون : بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السكن بهذه الطريقة عصمة من الريبة ؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضى أنْ يدخل الناس على الناس ؛ لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادىء والنظم التى تنظم هذه المسألة ؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّب أموراً تدعو إلى الرِّيبة والشك ؛ لذلك فى الفلاحين حتى الآن : إذا رأوا شخصاً غريباً يدخل حارة[1] لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل : لماذا دخل هنا ؟

إذن : فشرْع الله لا يحرم المجتمع من التلاقى ، إنما يضع لهذا التلاقى حدوداً وآداباً تنفى الرِّيْب والشبهة التى يمكن أنْ تأتى فى مثل هذه المسائل .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آداب الاستئذان : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور]

﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا .. (٢٧) ﴾ [النور] من الأُنْس والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك فى بيتك ، وأقبل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يُقدِّم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بُدَّ أن تحدث منه وَحْشة ونفور إذن : على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول : يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر مَنْ بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصياته التى لا يحب

---

(١) الحارة : كل محلّة دنت منازلهم فهم أهل حارة . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حير] .

صاحب البيت أن يطّلع عليها أحد ، إما كرامةً لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور]

أى : خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شيء يؤذيه ، وهَبْ أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدها فى شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتفاقم الخلاف .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور] يعنى : احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهاونوا فيها ، كمَنْ يقولون : نحن أهلٌ أو أقارب لا تكليفَ بيننا ؛ لأن الله تعالى الذى شرع لكم هذه الآداب أعلَمُ بما فى نفوسكم ، وأعلم بما يُصلحكم .

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامى من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففى الحديث الشريف « نهى أن يطرق المسافر أهله بليل »[(1)] إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤٤) ومسلم فى صحيحه (٣/١٥٢٨) كتاب الإمارة .

فإذا استأذنتَ على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل ؛ لأنك جئتَ للمكين لا للمكان ، إلا إذا كنتَ تريد الدخول لتتلصص على الناس وتتجسَّس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٢٨)﴾ [النور] كيف والدار ليس فيها أحد ؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بُدَّ أنْ يأذن لك صاحب الدار أو مَنْ ينوب عنه في الإذن ؛ لأنه لا يأذن إلا وقد أمِن خُلو الطريق مما يؤذيك ، أو مما يؤذى أهل البيت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ .. (٢٨)﴾ [النور]

لأنك إنْ تمسكت بالدخول بعد أنْ قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة فى نفسه ، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، ألاَ ترى قول رسول الله ﷺ : « دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك »(١) .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾ [النور] أى : عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور ، فإنْ قال لك صاحب الدار ارجع فوقفتَ أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام ، وربك - عز وجل - يريد أنْ يحميك من الظنون ودخائل النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) ، والإمام أحمد فى مسنده (١/٢٠٠) والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث الحسن بن على رضى الله عنهما ، وتمامه : « فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة » .

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

سأل الصِّدِّيق أبو بكر رضى الله عنه رسـول الله ﷺ : يا رسول الله نحن قـوم أهل تجارة ، نذهب إلى بـلاد ليس لنا فيـها بيـوت ولا أهل ، ونضطر لأن ننزل فى أمـاكن (عـامة كـالفنادق) نضع فـيها متاعنا ونبيت بها ، فنزلت هذه الآية[1] .

و ﴿جُنَاحٌ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] يعنى : إثم أو حـرج ، وهذه خـاصـة بالأماكن العامـة التى لا يسكنها أحد بعينه ، والمكـان العام له قوانين فى الدخول غير قـوانين البيوت والأماكن الخاصة ، فـهل تستأذن فى دخـول الفندق أو المـحل التـجـارى أو الحـمـام ... إلخ ، هذه أمـاكن لا حرجَ عليك فى دخولها دون استئذان .

فمعنى ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] أى : لقوم مـخصـوصين ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] كأن تنام فيها وتأكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فـالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقـيد بما أحلَّه الله وأمر به ، فلا يدخل فى المتاع المحرمات .

لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور] يعنى : فى تحـديد الاستمـتاع ، فـلا تأخذه على إطلاقه فـتُدخل فـيه

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن مـقاتل بن حيان قال : لـما نزلت آية الاستئذان فى البـيوت ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف بتـجار قريش الذين يختلفـون (أى : يتنقلون ويترددون) بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومـة على الطريق ، فكيف يستـأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] . أورده السـيـوطى فى أسـبـاب النزول (ص ١٢٧ ـ طبـعـة دار التـحـرير لـلطبع والنشـر ١٩٦٣م) .

الحرامَ ، وإلا فالبغايا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن ؛ لذلك يُحصِّنك ربك ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرتْ من اتباع خطوات الشيطان التي تؤدى إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ في الزواج ، وأن الزانى للزانية ، والزانية للزانى ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله فى أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضيء فيه القيم السامية ، مجتمعاً يخلو من وسائل (العكننة) والمخالفة والشَّحْناء والبغضاء ، فلو أننا طبَّقنا منهج الله الذى ارتضاه لنا لارتاح الجميع فى ظله .

ومسألة غَضِّ البصر التى يأمرنا بها ربنا - عز وجل - فى هذه الآية هى صمام الأمان الذى يحمينا من الانزلاق فى هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور]

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوْق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هى حاسَّة البصر ؛ لذلك وضع

الشارع الحكيم المناعة اللازمة فى طرفى الرؤية فى العين الباصرة وفى الشىء المبصر ، فأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة فى كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضّ البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات : **الأولى** : أن يغضّ هو بصره ولا تبدى هى زينتها ، فخطّ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، **الثانية** : أن يغضّ هو بصره وأن تبدى هى زينتها ، **الثالثة** : أن ينظر هو ولا تبدى هى زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة فى هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدم الآخر . إنما الخطر فى القسمة **الرابعة** : وهى أن ينظر هو ولا يغضّ بصره ، وأنْ تتزين هى وتُبدى زينتها ، ففى هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - حرَّم حالة واحدة من أربع حالات ؛ ذلك لأن المحرّمات هى الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فالمحرمات هى المحصورة المعدودة ، أمّا المحللات فهى فوق الحصر والعَدّ ، فالأصل فى الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شىء نَصّ عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغضّ بصره ، كذلك أُمِرَتْ المرأة بغضّ بصرها ، لأن اللَّفْتة قد تكون أيضاً للرجل ذى الوسَامة و .. و فإنْ كان حظ المرأة فى رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرتْ إلى غيره ، فكما يُقال فى الرجال يُقال فى النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التى وضعها الله عز وجل وألزمنا بها

إنما هى لمنع هذه الجريمة البشعة التى بُدِئَتْ بها هذه السورة ؛ لأن النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، ألاَ ترى شوقى رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغَزَل يقول :

نَظْرَةٌ فابتسَامَةٌ فسَلاَمٌ   فكَلامٌ فموعِدٌ فلِقَاءُ

فالأمر بغَضِّ البصر ليسدَّ منافذ فساد الأعراض ، ومَنْع أسباب تلوث النسل ؛ ليأتى الخليفة لله فى الأرض طاهراً فى مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بأن له نسباً وشرفاً ، والآخر لا نسبَ له .

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن مَنْ يليه فى الخلافة من أبناء أو أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعىٍّ شريف ، فيجتهد كل إنسان فى أن يُنشِّىء أطفاله تنشئةً فيها شفقة ، فيها حنان ورحمة ؛ لأنه واثق أنه ولده ، ليس مدسوساً عليه ، وأغلب الظن أن الذين يُهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون فى نسبهم إليهم .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضمنتَ له الصيانة الكافية ، لئلا تشرد منه غرائز الجنس ، فيعتدى كل نظر على مَا لا يحلّ له ؛ لأن النظر بريد إلى القلوب ، والقلوب بريد إلى الجنس ، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] دقة بلاغ الرسول عن ربه - عز وجل - وأمانته فى نقل العبارة كما أُنزلَتْ عليه ، ففى هذه الآية كان يكفى أن يقول رسول الله : غُضُّوا أبصاركم ، لكنه التزم بنص ما أُنزل عليه ؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزّل على رسوله والذى يُتعبَّد بتلاوته ، فلا بُدَّ أنْ يُبلِّغه الرسول كما جاءه من ربه .

لذلك قال في البلاغ عن الله (قُلْ) وفي الفعل (يَغضُّوا) دلالةٌ على ملحظية (قل) ، فالفعل (يغضوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حُذفت منه النون ، ذلك لأنه جعل (قُلْ) ملحظية في الأسلوب .

والمعنى : إنْ تقُل لهم غُضُّوا أبصاركم يغضُّوا ، فالفعل - إذن - مجزوم في جواب الأمر (قُلْ) .

إذن ﴿قُل ..(٣٠)﴾ [النور] تدل على أمانة الرسول في البلاغ ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضاً كلام الله المعجز ؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : ما أتيتُ لكم بشيء من عندي ، ومهمتي أن أبلغكم ما قاله الله لي .

وقوله : ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٣٠)﴾ [النور] فما داموا مؤمنين بإله حكيم ، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد ، فلا بُدَّ أنْ يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه .

والغَضُّ : النقصان ، يقال : فلان يغُضُّ من قَدْر فلان يعني : ينقصه ، فكيف يكون النقصان في البصر ؟ أينظر بعين واحدة ؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائي ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحرّماً عليها .

فنقص البصر يعني : قَصْره على ما أحل ، وكفّه عما حُرم ، فالنقص نقص في المرائي وفي مجال البصر ، فلا تعطى له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شيء ، إنما تُوقفه عند أوامر الله فيما يُرى وفيما لا يُرى .

و ﴿مِنْ .. (٣٠)﴾ [النور] في قوله تعالى : ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠)﴾ [النور] البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول : كُلْ من هذا الطعام يعني : بعضاً منه ، فالمعنى : يغضُّوا بعض البصر ؛ لأن بَعضه حلال لا أغض عنه بصري ، وبعضه محرم لا أنظر إليه .

أو : أن ﴿ مِنْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله ، وسبق أن تكلمنا عن (مِنْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا في التفسير لا بُدّ أن تقابلنا أشياء ذكرناها سابقاً ، ونحيل القارئ عليها .

قلنا : فرق بين قولك : ما عندى مال ، وقولك : ما عندى من مال . ما عندى مال ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتدّ به ، لكن ما عندى من مال نفى لجنس المال مهما قلّ ، فمِنْ تعنى بداية ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] يعنى : بداية ما يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر .

وقلنا : إن الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس ، إنما يتدخل في الأعمال النزوعية التي يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مررتَ ببستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فأعجبت بها وسُررْت وانبسطتْ لها أسارير نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرجَ عليك فيه ، فإنْ تعدّى الأمر ذلك فمددتَ إليها يدك لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : قفْ ، فليس هذا من حقك لأنها ليستْ لك .

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر وحده ، وكأن ربنا - عز وجل - يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلِّفه في النفس من عذابات ومواجيد .

ففى نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق كما شئت ، فإن نزعْتَ إلى ضمة أو قبلة قلنا لك : حرام . لماذا ؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإنْ أعجبتْك وانبسطتْ لها أساريرك ، فهذا وجدان ، لا بُدَّ أن يترك فى تكوينك تفاعلاً كيماوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإنْ طاوعتَ نفسك فى النزوع فقد اعتديتَ ، وإنْ كبتَّ فى داخلك هذه المشاعر أصابتْك بعُقد نفسية ودعتْك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع ؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى مَنْع الإدراك بغضِّ البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغضِّ البصر قال : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإنْ أمكن ذلك فى الأمور الأخرى ، فحين نمنعك عن قطف الوردة التى أعجبتْك لا يترك هذا المنع فى نفسك أثراً ولا وَجْداً ، على خلاف ما يحدث إنْ مُنعتَ عن امرأة أعجبتك ، وهيَّجك الوجدان إليها .

وحفْظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحلَّه الله وشرعه فلا أنيله لغَير مُحلَّل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو : أحفظه وأصونه أن يُرى ؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] يعنى : أطهر وأسلم وأدْعَى لراحة النفس ؛ لأنه إمـا أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج فى أعراض الناس ، وإما الا ينزع فيُكدِّر نفسه ويُؤلمها بالصبر على مَا لا تطيق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف فى الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملّحة لزهدَ الكثيرون فى الزواج وفى الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

ألاَ ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب فى مرحلة الحمل ، وأنها ترى المـوت عند الولادة ، حتى إنهـا لتقسـم أنها لا تعود ، لكـن بعد أن ترى وليـدها وتنسى آلامهـا سرعـان ما يعـاودها الحنين للإنجـاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التى زرعها الله فى النفس البشرية لدوام بقائها .

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز ، وربطها بلـذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشمّ والسماع .. إلخ فهى لذة تسـتوعب كل جوارح الإنسان وملكاته ، وما ذلك إلا حرْصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ(١) أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ(٢) مِنَ

(١) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سمى به بلفظه فلا يؤنث ، والجمع : بعول [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) غير أولى الإربة : أى : غير أولى الحاجة . والإربة الحاجة . والجمع مـآرب أى حوائج . قال القـرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٧١) : « اختلف الناس فى معناه ، فقيل : هو الأحمق الذى لا حـاجة به إلى النسـاء . وقيـل : الأبله . وقيل : الرجل يتبع القـوم فيـأكل معـهم ويرتفق بهم وهو ضـعيف لا يشـتهى النسـاء » ثم قال : « وهـذا الاختلاف كـله متـقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء » .

﴿الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾

ذكر هنا المقابل، فأمر النساء بما أمر به الرجال، ثم زاد هنا مسألة الزينة. والزينة: هي الأمر الزائد عن الحد في الفطرية؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين: غانية[1] يعني: غنيت بجمالها عن التزيُّن فلا تحتاج إلى كحل في عينيها، ولا أحمر في خدَّيها، لا تحتاج أن تستر قُلْبها[2] باسورة، ولا صدرها بعقد .. إلخ.

فإنْ كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجتْ لشيء من الزينة، لكن العجيب أنهن يُبالغْنَ في هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبي مائل، فترى مُسنَّات يضعْنَ هذا الألوان وهذه المساحيق، فيَظْهَرن في صورة لا تليقَ؛ لأنه جمال مُصْطنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية، وفيها قال المتنبي، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية:

حُسْن الحضارة مَجْلوبٌ بتطْرِيةٍ ... وفي البَدَاوة حُسْنٌ غير مَجلُوب[3]

ومن رحمة الله بالنساء أنْ قال بعد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. (٣١)﴾ [النور] قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١)﴾ [النور] يعني: الأشياء

---

(١) الغانية: الجارية الحسناء، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة. [لسان العرب - مادة: غنى].

(٢) القُلْب: سوار المرأة. والقُلْب من الأسورة: ما كان قلداً واحداً. [لسان العرب - مادة: قلب].

(٣) الحضارة: الإقامة في الحضر. والحضر: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف. سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار. [لسان العرب - مادة: حضر].

الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأنْ تمشى فى الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تُظهر مثل هذه الزينة الضرورية .

لكن لا يظهر منها القُرْط مثلاً ؛ لأن الخمار يستره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الأسورة أو الدُّملُك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغى أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطةَ أن تكون فى حدود ، وأن تقصر على مَنْ جُعلَتْ من أجله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١)﴾ [النور] المراد تغطية الزينة ، فالجارحة التى تحتها من باب أَوْلَى ، فالزينة تُغطِّى الجارحة ، وقد أمر الله بستْر الزينة ، فالجارحة من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١)﴾ [النور]

الخُمر : جمع خمَار ، وهو غطاء الرأس الذى يُسْدل ليستر الرقبة والصدر . الجيوب : جميع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمارُ فتحةَ الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شىء .

والعجيب أن النساء تركْنَ هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسْنَ القلادة ويُعلِّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعى وعدم الدراية بشرع الله مُنزِل هذا المصحف .

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ .. (٣١)﴾ [النور] والضرب هو : الوَقْع بشدة ، فليس المراد أنْ تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أنْ تُحكمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكُنْ عندهم خُمر ، فعمدْن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخُمُر[١] .

إذن : راعَي الشارع الحكيم زيَّ المرأة من أعلى ، فقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] ومن الأدنى فقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] أي : أزواجهن ؛ لأن الزينة جُعلَتْ من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] أبو الزوج ، إلا أنْ يخاف منه الفتنة ، فلا تبدى الزوجة زينتها أمامه .

ومعنى ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] أى : النساء اللائى يعملْنَ معها فى البيت كالوصيفات والخادمات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] والمراد هنا أيضاً ملْك اليمين من النساء دون الرجال .

ويشترط فى هؤلاء النساء أن يكُنَّ مسلمات ، فإنْ كُنَّ كافرات كهؤلاء اللائى يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تُبدى زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن فى هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة ، وربما ذهبت فوصفتْ ما رأتْ من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ملْك اليمين لا يخصُّ النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أنْ تُبدى زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالاً عاطفياً وامتناعاً عاطفياً فى النفس البشرية ، فالخادم فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .
والمرْوط جمع مِرْط وهو كساء يؤتزر به وتتلفع به المرأة .

القَصْر لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها ؛ لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة ، إلا إذا شجَّعْنَهُ ، وفتحْنَ له الباب ، وهذه مسألة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] أى : التابعين للبيت ، والذين يعيشون على فضلاته ، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه ، فليس عنده بيت يأويه ؛ لذلك ينام فى أىِّ مكان ، وليس عنده طعام ؛ لذلك يُطعمه الناس وهكذا ، فهو ضائع لا هدفَ له ولا استقلاليةَ لحياته ، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَق وينامون ولو على الأرصفة .

مثل (الأهبل) أو المعتوه الذى يعطف الناس عليه ، وليس له مطمع فى النساء ، ولا يفهم هذه المسألة ، فلا يُخاف منه على النساء ؛ لأنه لا حاجةَ له فيهن ؛ ولا يتسامى لأنْ ينظر إلى أهل البيت .

ومعنى : ﴿غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] يعنى : كأن يكون كبير السِّنِّ واهن القوى ، لا قدرةَ له على هذه المسائل ، أو يكون مجبوباً[١] ، مقطوع المتاع ، ولا خطرَ من مثل هؤلاء على النساء .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

نلحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وُصف بالجمع ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور] لماذا ؟ قالوا : هذه سمةَ من سمات اللغة ، وهى الدقة فى التعبير ، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع .

---

(١) الجَبُّ : القطع . والمجبوب : الخصيُّ الذى قد استؤصل ذكره وخُصْياه . فهو مقطوع الذكر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

كما نقول : هذا قاضٍ عَدْلٌ ، وهذان قاضيان عَدْل ، وهؤلاء قضاة عَدْل ، ولم نقل : عدلان وعدول ، فإذا وحَّد الوصف في الجميع بدون هوى كان الوصف كالشيء الواحد ، فالقاضي لا يحكم بمزاجه وهواه ، والآخر بمزاجه وهواه ، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد . إذن : فالعدل واحد لا يُقَال بالتشكيك ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العَدْل واحد .

كذلك الحال في ﴿ الطِّفْلِ .. (٣١) ﴾ [النور] مع أن المراد الأطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هَوىً ، فكل الأطفال - إذن - كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوَّن لكل منهم فكْره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شيءَ وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز وفي الميول .

بدليل أنه إذا كَبر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوَّن لديهم هَوىً وفكْر وميْل يقول القرآن عنهم : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ .. (٥٩) ﴾ [النور] فننظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحُّد في مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات] فوصف ضيف وهي مفرد بالجمع (مكرمين) ؛ ذلك لأن ضَيْف تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حَقٌّ والتزامات لا بُدَّ أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف في هذه الالتزامات واحد ، سواء كان مفرداً أو جماعة ؛ لذلك دَلَّ بالمفرد على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور] يظهر على كذا : لها معنيان في اللغة : **الأول** : بمعنى يعلم كما في

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. (٢٠)﴾ [الكهف] يعنى : إنْ علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ (٩٧)﴾ [الكهف] أى : السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى : ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها ، أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم علْم أو دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ .. (٣١)﴾ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - يكشف ألاعيب النساء وحيلهنّ فى جَذْب الأنظار ، فإذا لم يلفتك إليها النظر لفتك الصوت الذى تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك : يا بجم اسمع ، يا للى ما نتاش شايف اسمع ؛ وفى الماضى كُنَّ يلبسْنَ الخلخال الذى يُحدث صوتاً أثناء المشى ، والآن يجعلْنَ فى أسفل الحذاء ما يُحدث مثل هذا الصوت أثناء المشى ، وأول مَن استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار .

ومعلوم أن طريقة مَشْى المرأة تُبدى الكثير من زينتها التى لا يراها الناس ، وتُسبِّب كثيراً من الفتنة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفى ختام هذه المسائل : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾ [النور]

لم يَقُل الحق تبارك وتعالى : يا مَنْ أذنبتم بهذه الذنوب التى سبق الحديث عنها ، إنما قال ﴿جَمِيعًا .. (٣١)﴾ [النور] فحثَّ الجميع على

التوبة ؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء ، ومهما كان المسلم مُتمسكاً ملتزماً فلا يأمن أنْ تفوته هفوة هنا أو هناك ، والله - عز وجل - الخالق والأعلم بمَنْ خلق ؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثّهم عليها ، وقال لهم : ما عليكم إلا أنْ تتوبوا ، وعليَّ أنا الباقي .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن مسألة حفْظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أنْ يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج ؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه ؛ لأن المشرِّع لا بُدَّ أن يستولى بالتشريع على كُلِّ ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و ﴿ الْأَيَامَىٰ .. (٣٢) ﴾ [النور] جمع أيِّم ، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له ، والأيِّم من النساء مَنْ لا زوجَ لها .

ونلحظ أن الأمر فى ﴿ أَنكِحُوا .. (٣٢) ﴾ [النور] جاء هكذا بهمزة القَطْع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذى سينكح الأيِّم ، إنما لغيره أنْ يُنكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومَنْ عندهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لَهُنَّ أزواج : عَجِّلوا بزواج هؤلاء ، ويسِّروا لهم هذه المسألة ، ولا تتشددوا فى نفقات الزواج حتى تُعفُّوا أبناءكم وبناتكم ، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة .